## مقـــدمة

عرفت منطقة ساحل شرق افريقية منذ حوالى أربعـة آلاف سنة ، فقـد أرسل المصريون القدماء أساطيلهم التجارية اليها من البحر الأحمـر ، بهـدف الحصول على العاج والأبنوس والأخشاب العطرية التى كانت من مستلزمـات الطقوس الدينية فى مصر القديمة · وكان السبئيون عرب جنوب شبه الجزيرة العربية أول الشعوب العربية التى أتت الى الساحل الشرقى لأفريقية ، بغرض التجارة لا الغزو ، واختلطوا بأهل الساحل وتزوجوا منهم ، حتى أنه فى منتصف الألف سنة التى سبقت ميلاد المسيح عليه السلام ، بدأ الطابع العربى يظهر على طول الساحل ·

وبظهور الاسلام فى القرن السابع الميلادى ، أخذت الصلات بين العرب وساحل شرق أفريقية طابعا آخر ، يختلف عن الفترة السابقة للاسـلام ، اذ تتابعت الهجرات العربية الى مناطق الساحل التى وصلت الينـا بعض أخبارها وأحوالها بواسطة الرحالة ، والروايات المحلية ، ومن آثار المدن القديمة المبعثرة على الشاطىء · وكان لما دونه الرحالة العرب ، وخاصة ابن بطوطة ، أهميـة كبيرة فى معرفة أحوال المجتمعات العربية فى مناطق الساحل خـلال العصـور الوسطى · ووجه الأهمية هنا أن العرب المهاجرين الى الساحل شيدوا مدنـا على طوله ، وسيطروا عليها بنفوذهم · وعلى الرغم من أنه لم تقم وحـدة سياسية تجمع تلك المدن فى حكومة واحدة ، الا أنه كان للعرب تأثيرات عظيمة فيها لاتزال واضحة الى اليوم · فهم الذين أخذوا بأيدى السكان الأصليين فى مسالك الحضارة ، وأضفوا على حياتهم طابعا ثقافيـا واجتماعيـا اسـلاميا واضحا ، على عكس أهالى المناطق الداخلية الذين ظلوا على وثنيتهم · ونتيجة لامتزاج الدماء العربية بالدماء المحلية الأفريقية ، وتأثير كل منهما فى الأخرى ، ظهر مجتمع جديد عرف بالمجتمع السواحيلى ، له مميزاته الثقافية ، من أبرز مظاهرها المواءمة بين الاسلام والتقاليد المحلية التى لا تتعارض مـع أصـول

الاسلام • كما انه كان من تأثير ازدهار التجارة فى مدن الساحل ، أن عم الرخاء سكانها ، وارتفعت مستويات حياتهم• •

ومهما يكن من أمر ، فقد عاشت مدن ساحل شرق أفريقية تزاول نشاطها التجارى ، وتساهم فى نشر الاسلام والثقافة العربية ، طوال العصور الوسطى، الى أن دهمها الغزو البرتغالى الصليبى فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، فغير معالم تاريخها تماما •

وقد بدأت الكتاب فى الفصل الأول ببحث استقرار العرب والمسلمين فى ساحل شرق أفريقية ، موضحا العوامل الجغرافية التى لعبت دورا هامـــا فى توطيد صلات العرب بالساحل قبل ظهور الاسلام وبعده • ويأتى فى مقدمة تلك العوامل قرب موضع شبه الجزيرة العربية من الساحل ، فى الوقت الذى ساعدت الرياح الموسمية التى تهب على منطقة المحيط الهندى على تسهيل حركة الملاحة بين منطقة الخليج العربية والساحل • ثم تناولت الهجرات الأولى التى وصلت الى الساحل بعد ظهور الاسلام ، وربطت بينها وبين الوضع العام فى العـــالم الاسلامى لاسيما فى القرن الرابع الهجرى ( العاشر الميلادى )•

وفى الفصل الثانى ألقيت الضوء على انتشار الاسلام والثقافة العربية الاسلامية فى ساحل شرق أفريقية • ولا شك أن الاسلام وصل الى الساحل فى ركاب الهجرات العربية القادمة من جنوب شبه الجزيرة العربية ومنطقة الخليج العربى • وفى هذا الفصل تعرضت لآراء بعض الباحثين التى تقلل من شأن دور العرب فى هذه المنطقة ، والتركيز فى كتاباتهم على تأثير الحياة الشيرازية فى الساحل • كما تناولت المذاهب الاسلامية فى الساحل ، اذ كان من شأن الروابط المتينة بين مدن الساحل والعالم الاسلامى ، أن تطبع تلك المدن بمعالم تعكس الصورة المذهبية التى كان عليها المسلمون •

أما الفصل الثالث ، فقد تتبعت فيه بالشرح والتحليل مراحل الغزو البرتغالى الصليبى لمدن الساحل • وفى هذا الصـــدد يعتبر عهـــد يوحنـــا الأول ملك البرتغال ( ١٣٨٣ ــ ١٤٣٣ ) نقطة تحول هامة فى تاريخ البرتغال ، ففى عهده بدأت البرتغال تعنى بحركة الكشوف الجغرافية ، وهى الحركة التى عادت عليها بالثروة الطائلة والشهرة الواسعة • على أن حركة الكشوف الجغرافية البرتغالية

فى حقيقتها كانت وسيلة لغاية أبعد منها ، وهى احياء الحروب الصليبيـة ٠ وبعبارة أخرى تطورت فكرة الحروب الصليبية فى القرن الخامس عشر ، فبدلا من مواجهة المسلمين فى معارك دامية أثبتت الحروب الصليبية فشلها الذريع فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر اذا بها فى القرن الخامس عشر تتجه الى توسيع نطاق تلك الحروب ، وذلك بالعمل على تطويق المسلمين من الأمـام والخلف ٠ وتنفيذا لتلك السياسة أخذ البرتغاليون يرسلون الحملات تباعـا الى الساحل ، ويكيلون الضربات تلو الأخرى بمدنه ، حتى نجحوا فى السيطرة عليها فى أوائل القرن السادس عشر ٠

وفى الفصل الرابع والأخير ، تناولت أحوال المدن أو المـراكز العـربيـة الاسلامية فى الساحل منذ فجر الاسلام وحتى انتهاء القرن الخامس عشر ، ومن الملاحظ أن تلك المدن ازدهرت بالثروة والرخاء ، بسبب اشتغال سكانها بالتجارة ، وزاد الاسلام رسوخا فى أنحائها ٠ وعندما غزا البرتغاليون الساحل أدهشهم مارأوه فى تلك المدن من رقى وحضارة ، اذ كانت الفكرة السائدة عندهم هى أن الأقوام التى تعيش فى ساحل شرق أفريقية ، أقرب شبها الى الأقوام البدائية التى صادفوها فى الساحل الغربى من القـارة الافريقية ٠ لذلك عندما وصل فاسكودى جاما الى ساحل موزمبيق أصيب بدهشة عندما وقع نظره على المدينة بطرقاتها المستقيمة ، وبيوتها الحجرية ذات الطوابق المتعددة ٠

وأخيرا أختتم مقدمتى بالقول ان هذا الكتاب محاولة متواضعة لالقـاء الضوء على الجوانب السياسية والحضارية التى عاشها ساحل شرق أفريقية فى العصور الوسطى ٠ وفى الحديث الشريف : من اجتهد وأصاب له أجران ، ومن اجتهد وأخطأ له أجر ٠ والله أسأل أن أكون قد وفقت فيمـا أصبـو اليـه ،

والله ولى التوفيـق ٠

القاهرة فى ٢٠ ربيع الآخر ١٤٠٥ هـ
أول يناير ١٩٨٦ م ٠

**محمود محمد الحويرى**